فقال : « من أصبح منكم آمنا فى سربه معافى فى جسده ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »[١] .

ومادام قد حيزت له الدنيا بحذافيرها بهذه الأشياء فهو ملك . وقد أعطاهم هذه المسائل أى جعلهم ملوكاً . « وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين » أى أنه سبحانه أعطاهم ما لم يعطه لأحد ممن حولهم ؛ ووالى عليهم ذلك العطاء ، ألم يعط ـ سبحانه ـ نبى الله سيدنا سليمان وهو من بنى إسرائيل مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ؟ تلك الواقعة لم يقلها موسى عليه السلام لأنها حدثت من بعد موسى بأحد عشر جيلاً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

وهذا بلاغ من موسى بما أوحى الله به إليه ، ومتى حدث ذلك ؟ نعرف أن صلة بنى إسرائيل بمصر كانت منذ أيام يوسف عليه السلام ، وعندما جاء يوسف بأبيه وإخوته وعاشوا بمصر وكونوا شيعة بنى إسرائيل ، ومكن الله ليوسف فى الأرض وعاشوا فى تلك الفترة . والعجيب أن المس القرآنى للأحداث التاريخية فيه دقة متناهية ، ولم نعرف نحن تلك الأحداث إلا بعد مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر . فعندما جاءت تلك الحملة صحبت معها بعثة علمية . وكانت تلك البعثة تنقب عن المعلومات الأثرية ليتعرفوا على سر حضارة المصريين ، وسر تقدم العرب القديم ، الذى سبق أوربا بقرون ، وأخذت منه أوربا العلوم والفنون ، فى حين صار هذا العالم العربى إلى غفلة .

إن العرب المسلمين هم الذين اخترعوا أشياء ذهل لها العالم الغربى ، ويحكى لنا

(١) أخرجه الترمذى .

التاريخ عن هدية من أحد ملوك العرب إلى شارلمان ملك فرنسا وكانت الساعة دقاقة ، وظن الناس من أهل فرنسا أن بهذه الساعة الدقاقة شيطانا . وفكرة تلك الساعة أن العالم الذى صممها وضع فيها إناء من الماء به ثقب صغير تنزل منه القطرة بثقلها على شيء يشبه عقرب الساعة ، فتتحرك الساعة دقيقة واحدة من الزمن . وكانت الساعة تسير بنقطة الماء . وكان ضبطها فى منتهى الدقة . وحين رآها الناس فى بلاط شارلمان ملك فرنسا ظنوا أن بداخلها شياطين . وهذا نموذج من نماذج كثيرة لا حصر لها ولا عدد تدخل فى نطاق قوله الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

وحينما جاء الفرنسيون إلى القاهرة كان معهم تلك البعثة العلمية ومعهم مطبعة ، وعرض هؤلاء العلماء الفانوس السحرى ، وجعلوا الناس البسطاء يذهلون من تقدمهم العلمى . واستترت تلك الحملة بعروض أقرب إلى « الأكروبات » . وكان عمل العلماء هو البحث عن سر حضارة المصريين والمسلمين ؛ لأنهم يعلمون أن الحضارة الإسلامية انتقلت إلى مصر بالإضافة إلى حضارة المصريين القدماء .

لقد كانوا يعرضون ألعابهم السحرية العلمية بدرب الجماميز ، وذلك حتى ينبهر الناس بالحضارة الفرنسية . وكان علماؤهم فى الوقت نفسه يكتشفون ما نقش على حجر رشيد ، وهو الحجر الذى اكتشفه ضابط فرنسى شاب اسمه شامبليون ، وعلى هذا الحجر كتبت الكلمات الهيروغليفية . واستطاع شامبليون أن يفصل أسماء الأعلام الهيروغليفية ومن خلال ذلك استطاع أن يصل إلى أبجدية تلك اللغة . وكأن الله أراد أن يسخر الكافرين بمنهج الله ليؤيدوا منهج الله .

إن فى كل لغة شيئا اسمه « منطق الأعلام » ومثال ذلك أن يوجد اسم رجل أو أمير أو إنسان ، فهذا الاسم مكون من حروف لا تتغير ، مثال ذلك نأخذه من اللغة الإنجليزية ؛ كان اسم رئيس وزراء انجلترا فى وقت من الأوقات هو « تشرشل » هى كلمة إذا ترجمناها ترجمة حرفية لم تدل على صاحبها ولم تعرفنا به لأننا عندما نترجمها نكتفى بكتابة الاسم بالحروف العربية بدلاً من اللاتينية .

إذن فالأعلام لا يتغير نطقها .

وكشف شامبليون عن الحروف التى لم تتغير . واهتدى إلى فك طلاسم جروف اللغة الهيروغليفية ؛ فعرف كيف يقرأ المكتوب على حجر رشيد ، واستطاع أن يقدم لنا بدايات اكتشاف تاريخ مصر القديمة . واستطاع أن يقرأ اللغة المرسومة على ذلك الحجر .

ولنا أن نرى عظمة القرآن حينما تعرض للأقدمين . . تعرّض لعادٍ وتعرُّض لثمود وتعرض لفرعون . تعرض لتلك الحضارات كلها فى سورة الفجر ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وإرم ذات العماد هى التى فى الأحقاف ـ فى الجزيرة العربية ـ ولم نكتشفها بعد ، ولم نعرف عنها حتى الآن شيئاً ، وهى التى يقول عنها الحق :

﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الفجر)

ثم يتكلم بعدها عن فرعون :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

والأهرام أقيمت بالفعل على أوتاد ، وكذلك المسلات المصرية القديمة والمعابد . وغيرها من العجائب التى بهرت الناس فى مختلف العصور .

﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الفجر)

ثم جاء بحضارة ثمود .

﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وقد رأينا هذه الحضارة التى كان الناس أثناءها ينحتون البيوت فى الصخر ، كما رأينا حضارة مصر . وحضارة عاد هى التى لم نرها حتى الآن ؛ ولا بد أن تكون مطمورة تحت الأرض . ونعرف أن الهبة الرملية الواحدة عندما تهب فى تلك المناطق تطمر القافلة كلها ، فما بالنا بالقرون الطويلة التى مرت وهبت فيها آلاف العواصف الرملية ، إذن لا بد أن ننقب كثيراً لنكتشف حضارة عاد . والحق تكلم عن حضارة مصر القديمة فقال : (وفرعون ذى الأوتاد) ، وعندما تكلم عن موسى عليه السلام ، تكلم - أيضاً - عن المعاصرين له وكان أحد هؤلاء الفراعنة ، فقال سبحانه لموسى ولأخيه هارون عليهما السلام :

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة طه)

ويذهب موسى إلى فرعون حتى يخلص بنى إسرائيل من ظلم فرعون . ولماذا ظلمهم فرعون ؟ نحن نعرف أن كل سياسة تعقب سياسة سابقة عليها تحاول أن تطمس السياسة الأولى ، وتعذب من نصروا السياسة الأولى ، وتلك قضية واضحة فى الكون . وهذا ما يتضح لنا من سيرة سيدنا يوسف الذى صار وزيراً للعزيز ودعا أباه وأمه وشيعته إلى مصر ، ولم تأت سيرة فرعون فى سورة يوسف .

وعندما تكلم القرآن على رأس الدولة فى أيام يوسف قال :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة يوسف)

لم يقل الحق : « فرعون » على الرغم من أنه قال قبل ذلك عنه إنه : « فرعون » وأيام موسى ذكر فرعون ، لكن فى أيام يوسف لم يأت بسيرة فرعون إنما جاء بسيرة مَلِك . وعندما جاء اكتشاف حجر رشيد ، ظهر لنا أن فترة وجود يوسف عليه السلام فى مصر هى فترة ملوك الرعاة أى الهكسوس الذين غَزَوْا مصر وأخذوا الـمُلْكَ من المصريين وحكموهم وصاروا ملوكاً ، وسمى عصرهم بعصر الملوك .

وقال القرآن : (وقال الملك ائتونى به) . ولم يأت بذكر لفرعون . وعندما استرد الفراعنة ملكهم وطردوا ملوك الرعاة ، استبد الفراعنة بمن كانوا يخدمون الملوك وهم بنو إسرائيل . هكذا تتأكد دقة القرآن عندما ذكر فرعون لأنه كان الحاكم أيام موسى ، لكن فى زمن يوسف سمى حاكم مصر باسم الملك . وتلك أمور لم نعرفها

إلا حديثاً . ولكن القرآن عرفنا ذلك . وكانت تحتاج إلى استنباط . وهى تدخل ضمن الآيات التى لا حصر لها فى قوله الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

فسبحانه وتعالى بعد أن أيد موسى بالآيات وأغرق فرعون ، هنا قال لهم موسى :

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فقد انتهت المهمة بتخليص بنى إسرايل من فرعون ، وخلصوا أهل مصر من فرعون . وكانت الدعوة لدخول الأرض المقدسة . وكلمة الأرض إذا أطلقت صارت علماً على الكرة الجامعة . ووردت كلمة « الأرض » فى قصة بنى إسرائيل فى مواضع متعددة لمواقع متعددة .

فها هو ذا قول الله فى آخر سورة الإسراء :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

فهل هناك سكن إلا الأرض ؟ إن أحداً لا يقول : اسكن كذا إلا إذا حدد مكاناً من الأرض ؛ لأن السكن بالقطع سيكون فى الأرض ، فكيف يأتى القول : « اسكنوا الأرض » ؟ والشائع أن يقال : اسكن المكان الفلانى من المدن ، مثل : المنصورة أو أريحا ، أو القدس . وقوله الحق : « اسكنوا الأرض » هو لفتة قرآنية ، ومادام الحق لم يحدد من الأرض مسكوناً خاصاً ، فكأنه قال : ذوبوا فى الأرض فليس لكم وطن ، وانساحوا فى الأرض فليس لكم وطن ، أى لا توطن لكم أبداً ، وستسيحون فى الأرض مقطعين ، وقال سبحانه :

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

وحين يأتى القرآن بقضية قرآنية فلنبحث أأيدتها القضايا الكونية أم عارضتها ؟ القضية القرآنية هنا هى تقطيع بنى إسرائيل فى الأرض أمما ، أى تفريقهم وتشتيتهم ولم يقل القرآن : « أذبناهم » بل قال : « قطعناهم » وتفيد أنه جعل بينهم أوصالاً ولكنهم مفرقون فى البلاد. وعندما نراهم فى أى بلد نزلوا فيها نجد أن لهم حيا مخصوصا، ولا يذوبون فى المواطنين أبداً ، ويكون لهم كل ما يخصهم من حاجات يستقلون بها ، فكأنهم شائعون فى الأرض وهم مقطعون فى الأرض ولكنهم أمم ، فهناك « حارات » وأماكن خاصة لليهود فى كل بلد .

حدث ذلك من بعد موسى عليه السلام ، لكن ماذا كان الأمر فى أيام موسى ؟ قال لهم الحق : « ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » أى بعد رحلتكم مع فرعون اذهبوا إلى الأرض التى كتبها الله لكم . ونلحظ هنا أن كلمة « الأرض المقدسة » فيها تحييز وتحديد للأرض .

ولكن ما معنى « مقدسة » ؟ المادة كلها تدل على الطهر والتطهير . فـ « قَدَّس » أى طهّر ونزّه ، ومقدسة يعنى مطهرة . والألفاظ حين تأتى تتوارد جميع المادة على معانٍ متلاقية . ففى الريف المصرى نجد ما نسميه « القَدَس » أو « القادوس » وهو الإناء الذى يرفع به الماء من الساقية ، وكانوا يستعملونه للتطهير ، فالقادوس فى الريف المصرى هو وعاء الماء النظيف . وعندما يقال : « مقدسة » أى مطهرة .

إن من أسماء الحق « القُدُّوس » ، ويقال : «قُدِّس الله » أى نزه ، فالله ذات وليست كذات الإنسان ، وله سبحانه صفات منزهة أن تكون كصفاتك ، وهو سبحانه له أفعال ، ولكن قدسه وطهره منزهة أن تكون كأفعالك . فذات الحق واجبة الوجود وذات الإنسان ممكنة الوجود ؛ لأن ذات الإنسان طرأ عليها عدم أول ، ويطرأ عليها عدم ثانٍ ، وهو سبحانه واجب الوجود لذاته ، والإنسان واجب لغيره وهو قادر سبحانه أن ينهى وجود العبد . ولله حياة وللإنسان حياة ، لكن أحياتك أيها الإنسان كحياة الله ؟ لا .

إن حياته سبحانه منزهة وذاته ليست كذاتك ، وصفاته ليست كصفاتك ، فأنت قادر قدرة محدودة وله سبحانه طلاقة القدرة ، وهو سبحانه سميع والعبد سميع ؛ لكن سمع البشر محدود وسمعه سبحانه لا حدود له .

إذن فصفاته مقدسة ، ولذلك فعندما تسمع أنه سبحانه سميع عليم فليس سمعه كسمعنا ،وله فعل غير فعلنا . وعندما يقول الحق : إنه فعل ، ففعله منزه عن التشبيه بفعل البشر ؛ لأن البشر من خلق الله ، وفعل البشر معالجة ، ويكون للفعل بداية ووسط ونهاية ويفرغ من الأحداث على قدر الزمن . ونحن نحمل الأشياء فى أزمان متعددة ويحتاج من يحمل الأشياء إلى قوة . ولكن فعل الحق مختلف ، إنه فعل بـ « كن » لذلك قال :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة ق)

أى أنه سبحانه وتعالى منزه عن التعب ، فهو يقول : « كن فيكون » ولذلك قلنا فى مسألة الإسراء :إننا يجب أن ننسب الحدث إلى الله لا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى نعرف أن الذين عارضوا رسول الله فى مسألة الإسراء كانوا على خطأ ؛ فقد قالوا : أنضرب لها أكباد الإبل شهراً وتدعى أنك أتيتها فى ليلة ؟!

إن رسول الله لم يدع لنفسه هذا الأمر ، لأنه لم يقل : سريت من مكة إلى بيت المقدس » حتى تقولوا : أنضرب لها أكباد الإبل شهراً وتدعى أنك أتيتها فى ليلة » .

لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : أُسْرِىَ بى . أى أنه صلى الله عليه وسلم ليس له فعل فى الحدث . والفعل إذن لله . ومادام هو من فعل الله فهو لا يحتاج إلى زمن ؛ لذلك كان يجب أن يفهموا على أى شىء يعترضون . ولكنا نعرف أن الله سبحانه وتعالى أراد لهم أن يفهموا على تلك الطريقة ؛ لأنه سيأتى أناس من المتحذلقين المعاصرين ويقولون : « إن الإسراء كان بالروح » نقول لهم : بالله لو قال محمد للعرب : أنا سريت بروحى أكانوا يكذبونه ؟ تماما مثلما يقول لنا قائل : « أنا كنت فى نيويورك الليلة ورأيتها فى المنام » فهل سيكذبه أحد ؟ لا . إذن لقد كذب العرب لأنهم فهموا أنه أُسْرِىَ به بمعنى كامل . . أى كان الإسراء بالجسد والروح معا ، بدليل أنهم قارنوا فعلاً بفعل ، وحدثاً بحدث ، ونقلة بنقلة ، وقالوا قولهم السابق . لقد جاءت هذه المسألة لتخدم الإسلام .

إذن فـ « قدوس » يعنى مطهر ومنزه . وساعة ترى شيئاً مخالفاً لقضية العقل اقرنه

بفعل الله ، ولا تقرنه بفعلك أنت أيها العبد ؛ لأن الفعل يتناسب مع قوة الفاعل طرداً أو عكسا . فإن كان الفاعل صاحب قدرة قوية . فزمنه أقل . مثال ذلك : نقل أردب من القمح من مكان إلى مكان ، فإن كان الذى يحمل الأردب طفلاً فلن ينقل الأردب إلا قدحا بقدح ؛ وإن كان رجلا ناضجا سينقل الأردب « كيلة بكيلة » . وإن كان صاحب قوة كبيرة قد ينقل الأردب كله مرة واحدة . إذن فالزمن يتناسب مع القوة تناسبا عكسيا . فإن كثرت القوة قل الزمن . وهات أى فعل بقدرة الله فلن يستغرق أى زمن .

إذن قدس الله فى كل شىء . والأرض المقدسة هى المطهرة ، وذلك بإرادة الحق سبحانه ، تماما كما أراد سبحانه أن تكون بقعة من الأرض هى الحرم ، لا يتم فيها الاعتداء على صيد أو نبات أو اعتداء بعضكم على بعض ، وهل ذلك كلام كونى أو كلام تشريعى ؟

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾

(من الآية ٦٧ سورة العنكبوت)

لو كانت المسألة إرادة كونية ، فكان لا بد ألا يحدث خلل أبداً وألا يعتدى أحد على أحد. وما الفرق بين الكونى والتشريعى؟ إن الكونى يقع لأنه لا معارض فى الأمور القهرية ، فالحق يريد أن يكون عبداً طويل القامة ، فتلك إرادة كونية تحدث ولا دخل للعبد بها . ولكن إن أراد الحق أن تكون طائعا مصليا ، فتلك إرادة تشريعية . والإرادة تكون تشريعية فيما إذا كان للمريد اختيار ، يصح أن يفعلها ويصح ألا يفعلها ، لكن الإرادة الكونية هى فيها لا إرادة للإنسان فيه وواقع على رغم أنف الإنسان .

والله سبحانه وتعالى يريد الحرم آمناً . وتلك إرادة تشريعية لأنه حدث أن أهيج فيه أناس ولم يأمنوا . ولو كانت إرادة كونية لما حدثت أبداً . لذلك فهى إرادة تشريعية ، فإن أطعنا ربنا جعلنا الحرم آمنا ، وإن لم نطعه فالذى لا يطيع يهيج فيه الناس ويفزعهم ويخيفهم . فمراد الله عز ومطلوبه شرعا « أن يكون الحرم آمنا » .

« ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » فهل هذه الأرض المقدسة كتبها الله لهم

كتابة كونية أو كتابة تشريعية ؟ إن كانت كتابة كونية لكان من اللازم أن يدخلوها ولكنه قال :

﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة المائدة)

إذن هى إرادة تشريعية وليست إرادة كونية . فإن أطاعوا أمر الله وتشجعوا ودخلوا الأرض المقدسة فإنهم يأخذونها ، وإن لم يطيعوه فهى محرمة عليهم . إذن فلا تناقض بين أن يقول سبحانه : إنه كتبها لهم ، ثم قوله من بعد ذلك : إنها محرمة عليهم ، لقد كتبها سبحانه كتابة تشريعية . فإن دخلوها بشجاعة ولم يخافوا ممن فيها واستبسلوا ووثقوا أن وراءهم إلهاً قوياً سيساندهم ؛ فإنهم سيدخلونها ، أما إن لم يفعلوا ذلك فهى محرمة عليهم .

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وجاءت الأرض هنا أكثر من مرة :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

وعرفنا مراد ذلك القول . والدقة هنا أنه سبحانه جاء بأمر السكن فى الأرض لبنى إسرائيل أى فى الأرض عموما ومحكوم عليهم أن يكونوا قطعا ومشردين .

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

أى أنه سبحانه يجمعهم من كل بلد ويجىء بعد ذلك وعد الآخرة الذى جاء فى أول سورة الإسراء :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

لأن الحق حينما قال :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

أى أنه سبحانه وتعالى يدخل بهذه الآية المسجد الأقصى فى مقدسات الإسلام . وأوضح الحق لهم : يا أيها اليهود أنتم ستعيشون فى مكان بعهد من رسولى ، ولكنكم ستفسدون فى المكان الذى تعيشون فيه وسيتحملكم القوم مرة أو اثنتين وبعد ذلك يسلط الله عباداً له يجوسون خلال دياركم ويشردونكم من هذه البلاد .

والحق يبلغنا : نحن أعلمنا بنى إسرائيل فى كتابهم ما سيحدث لهم مع الإسلام :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وبعض الناس يقولون : إن هذا كان أيام بختنصر ؛ ونقول لهم : افهموا قول الحق : « فإذا جاء وعد أولاهما » وكلمة « وعد » لا تأتى لشىء يسبق الكلام بل الشىء يأتى من بعد ذلك . إذن فلم يكن ذلك فى زمان بختنصر . فـ « إذا » الموجودة أولاً هى ظرف لما يُستقبل من الزمان ، أى بعد أن جاء هذا الكلام . ثم هل كان بختنصر يدخل ضمن عباد الله ؟. إن قوله الحق : « عباداً لنا » مقصود به الجنود الإيمانيون ، وبختنصر هذا كان فارسيا مجوسيا .

وهذا القول الحكيم يشير إلى الفساد الأول مع رسول الله بعد العهد الذى أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أجلاهم . وهل هى تقتصر على هذه ؟ يقول سبحانه :

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ

﴿ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ولنا أن نسأل : وهل لم يفسد بنو إسرائيل فى الأرض إلا مرتين ؟. لا ، لولا أنهم لم يفسدوا فى الأرض سوى مرتين ، لكان ذلك بالقياس إلى ما فعلوه أمراً طيباً ؛ فقد أفسدوا أكثر من ذلك بكثير . ولابد أن يكون إفسادهم فى الأرض المقصودة هو الفساد الذى صنعوه بالأرض التى كانت فى حضانة الإسلام ، وسبحانه قد قال : « بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد » فمادام يوجد « عباد الله » خالصو الإيمان وأعدوا العدة فلا بد أن يتحقق وعد الله ، لكن إذا ما تخلى الناس عن هذا الوصف ؛ فعلى الناس الذين يعانون من إفساد بنى إسرائيل أن يتلقوا ما قاله الله :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فكأن الكَرَّة لا ترد إلا إذا كان القوم المؤمنون على غير مطلوب الإيمان . فإذا ما تساءل بعض المؤمنين : ولماذا تجعل يا الله الكَرَّة لبنى إسرائيل ؟. تكون الإجابة : لأنكم أيها الناس قد تخلفتم عن مطلوب العبودية الخالصة لله . ومادمنا قد تخلفنا عن مفهوم « عباد الله » فلا بد أن تحدث لنا تلك السلسلة الطويلة التى نعرفها من عدوان بنى إسرائيل . ونحن الآن فى مواجهة اليهود فى مرحلة قوله الحق :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فإذا كنا عباداً لله فلن يتمكنوا منا . والله سبحانه وتعالى حينما يتكلم بقضية قرآنية فلا بد أن تأتى القضية الكونية مصدقة لها .

ولو استمر الأمر بدون كرّة من اليهود علينا ، بينما نحن قد ابتعدنا عن منهجنا وأصبح كل يتبع هواه ، لكانت القضية القرآنية غير ثابتة . ولكن لا بد من أن تأتى أحداث الكون مطابقة للقضية القرآنية . ولذلك رأينا أن بعض العارفين الذين نعتقد قربهم من الله حينما جاء أحدهم خبر دخول اليهود بيت المقدس سجد لله .

فقلنا : « أتسجد لله على دخول اليهود بيت المقدس » . فقال : نعم . صدق ربنا

لأنه قد قال : « وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » هكذا قال الحق ، وهل يكون دخول لثانى مرة إلا إذا كان هناك خروج من أول مرة ؟ . لقد حمد ذلك العارف بالله ربنا لأن قضايا القرآن تتأكد بالكونيات ، فإذا ما قال الحق :

﴿ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فليست المسألة أنهم لكونهم يهوداً لا يعطيهم الله الكَرَّةَ . ولكن القضية هى أننا عندما نكون عباداً لله حقيقة .. اعتقادا وسلوكا .. قولا وعملا ننتصر عليهم .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وهم أغنياء لأنهم يديرون معظم حركة المال فى العالم المعاصر . ولأنهم جميعاً فى الجيش المدافع عن دولتهم . وذلك معنى بنين وأكثر نفيرا . النفير هو ما يستنفره الإنسان لنجدته ؛ لأن قوة ذاته قاصرة عن الفعل . واليهود ليسوا قوة ذاتية بمفرد دولتهم ، ولكن وراءهم أهم قوى فى العالم المعاصر .

إذن فقوله الحق :

﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

وقوله الحق :

﴿ وَبَنِينَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

وقوله الحق :

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

ثم بعد ذلك يحسم الله قضيته ويقول لليهود :

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وهل تستمر الكرّة يارب ؟ .

لا . فها هو ذا الحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

كأن الحق يعطينا البشارة بأننا سننتصر ؛ ويكون الانتصار مرهونا بتنفيذ القاعدة التى شرعها الله بأن نكون عباداً لله حقا ، عندئذ سَيَكِلُ الله لنا تنفيذ وعده لليهود :

﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وأشرف ما فى الإنسان هو الوجه ، وعندما نكون عباداً لله سنسوء وجوههم ، وفوق ذلك :

﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

ولم يأت الحق بذكر المسجد من قبل ، فها هو ذا قوله الكريم :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فالحق هنا لم يأت بذكر المسجد فى أول مرة . فكيف يكون دخولنا المسجد إذن ؟ . لقد دخلنا المسجد الأقصى أول مرة فى الامتداد الإسلامى فى عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه . والمسجد الأقصى أيام عمر بن الخطاب لم يكن فى نطاق بنى إسرائيل ، ولكن كان فى نطاق الدولة الرومانية ، فدخولنا المسجد أول مرة لم يكن نكاية فيهم . ولكن الحق جاء بالمرة الثانية هنا والمسجد فى نطاق سيطرة بنى إسرائيل :

﴿ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

سنكون نحن إذن عبادًا لّلهِ ذوى البأس الشديد الذين سندخل المسجد الأقصى كما دخلناه أول مرة ، وجاء الحق سبحانه بالمسجد هنا ؛ لأن دخول المسجد أول مرة لم يكن إذلالاً لليهود ، فقد كانت السلطة السياسية فى ذلك الزمن تتبع ـ كما قلنا ـ الدولة الرومانية .

ويضيف الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وحتى نتبر ما يُعْلُونه ـ أى نجعله خرابا ـ لا بد أن تمر مدة ليعلوا فى البنيان .

وعلينا أن نعد أنفسنا لنكون عباداً لله لنعيش وعد الآخرة وقد جعلها الله وعدا تشريعياً ، فإذا عدنا عباداً لله فسندخل المسجد ونتبر ما علوا تتبيرا ، والحق سبحانه وتعالى فى آيات سورة المائدة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يأتى بلقطة عن بلاغه لسيدنا موسى بعد خروجه مع قومه من مصر ، فقال :

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وقلنا إن الكتابة هنا تشريعية وليست كونية ، فلو كان الأمر كونياً لدخلوا الأرض

المقدسة بدون عقبات وبدون صراع وبدون قتال . والدليل على أن الكتابة تشريعية هو قوله الحق : « ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » أى أنكم إن ارتددتم على أدباركم انقلبتم خاسرين . فإن أطعتم الله ودخلتم الأرض دون إدبار ، فستدخلون الأرض ، وإن لم تفعلوا فلن تدخلوها . إذن ليست كتابة الأرض هنا كونية ، ولكنها تشريعية .

وقوله الحق : « ولا ترتدوا على أدباركم » يشرح لنا طبيعة مواجهة الخصم ؛ فالإنسان حين يواجه خصمه فهو يواجهه بوجهه . فإن فرّ الخصم من أمامه فهو يولى أدباره . والتولى على الأدبار يكون على لونين : لون هو الإدبار من أجل أن ينحرف الإنسان إلى جماعة وفئة لتشتد قوتهم ويقووا على هزيمة العدو أو يصنع مكيدة ؛ ليعيد مواجهة الخصم ، ولون آخر وهو الفرار وذلك مذموم ، ومن المعاصى الموبقات المهلكات . وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

فالارتداد على الأدبار ليس مذموماً إن كان من أجل حيلة أو صنع كمين للعدو . وفى هذه الحالة لا بأس أن يرتد الإنسان ، أما خلاف ذلك فهو مذموم . وهل الارتداد على الأدبار رجوع بالظهر إلى الوراء مع الاحتفاظ بالوجه فى مواجهة الخصم ؟ . أو هو التفات بالوجه ناحية الدبر وفرار من العدو ؟ . كلا الأمرين يصح . وقد جاء الأمر إلى بنى إسرائيل بعدم الفِرار ليدخلوا الأرض فماذا كان موقفهم مادامت الكتابة لهذا الأمر تشريعية ؟ .

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

كيف إذن يعلنون هذا التمرد على أمر الحق ؟. وكيف علموا أن فيها قوماً جبارين ؟. ولنا أن ننتبه إلى أن الحق قد قال من قبل :

﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة المائدة)

فقد ذهب النقباء أولاً وتجسسوا ونقبوا وعرفوا قصة هذه الأرض المقدسة ، وأن فيها جماعة من العمالقة الكنعانيين . وساعة رأوا هؤلاء القوم ، قالوا لأنفسهم : هل سنستطيع أن نقاوم هؤلاء الناس ؟ إن ذلك أمر لا يصدق ؛ لذلك لن ندخلها ماداموا فيها . إذن فقد تخاذلوا وارتدوا على أدبارهم . « قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين » .

وساعة أن تسمع كلمة « جَبَّار » تجدها أمراً معنوياً أُخذ من المحسات ؛ فالجبارة هي النخلة التي لا تطولها يد الإنسان إذا أراد أن يجني ثمارها . وعندما تكون ثمار النخلة في متناول يد الإنسان حين يجني ثمارها فهي دانية القطوف ، أما التي لا تطولها يد الإنسان لحظة الجني للثمار فهي جَبَّارة ؛ لذلك أخذ هذا المعنى ليعبر عن الذي لا يقهر فسمي جباراً ، وقد يكون الجبار مُكرِهاً ولكن على الإصلاح ، وفي بلادنا نطلق على من يصلح كسور العظام « المجبراتي » .

أي أنه يجبر العظام على أن تعود إلى مكانها الطبيعي . وقد يتألم الإنسان من ذلك ، ولكن في هذا إصلاح لحياة الإنسان . و« الجَبَّار » اسم من أسماء الله ؛ لأنه سبحانه يَقْهَر ولا يُقهَر . وقد يُكرهنا سبحانه وتعالى حتى يصلحنا . ويختبرنا بالابتلاءات حتى يمحصنا وتستوي حياتنا .

إذن فـ « الجبار » صفة كمال في الحق لأنه يستعمل جبروته في الخير ويقهر الظالمين والمعاندين والمكابرين ، وذلك لمصلحة الأخيار الطيبين . وهو سبحانه وتعالى لا يُقهَر . فعندما يكون في صف جماعة فإن أحداً لا يغلبهم ، أما الجبار كصفة في الخلق فهي مذمومة ؛ لأن التجبر هنا بدون أصالة كالبناء الأجوف . فالمتجبر قد يصيبه قليل من الصداع فيرقد متوجعاً .

إننا نرى أمثلة لذلك في حياتنا ، نجد المتجبر يصاب بأزمة قلبية فيحمل على نقالة

إلى المستشفى ، ونجد جباراً آخر يصاب بقليل من المغص ، فيجرى وهو ممسك ببطنه فيضحك عليه الأطفال . ويقولون له ما معناه : العب بعيداً فلست جباراً ولا فتوة ولا أى شيء . والجبار إن أراد أن يكون كذلك فعليه أن يكون صاحب رصيد مستمر ، فلا تراه يوماً غير جبار . ولا يكون التجبر صفة ذاتية إلا لله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق : « وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » وساعة نسمع « لن » تسبق الفعل فلنعرف أنها للنفى . والنفى قد يأخذ زمناً طويلاً ، وقد يأخذ زمناً تأبيدياً . والفرق بين الدخول فقط والدخول التأبيدى ، أن الدخول الأول له زمن ينهيه ، والدخول الثانى لا زمن له لينهيه كدخول المؤمنين الجنة .

وإذا عين الدخول بغاية كقولهم : « وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » أى أن النفى التأبيدى مرتبط بغاية وهى خروج القوم الجبارين . والتأبيد هنا إضافى لأنهم قالوا : إنهم لن يدخلوا الأرض فى مدة وجود الجبارين .

« فإن يخرجوا منها فإن داخلون » ونقول : وهل الأمم التى تخطو إلى الشر وتمارسه يمتنع فيها وجود عناصر الخير ؟ . لا ؛ لأن الحق يبقى بعضاً من عناصر الخير حتى لا ينطمس الخير ، وهذا ما يوضحه الحق فى بنى إسرائيل عندما قالوا لموسى هذا القول ، فقد خالفهم رجلان منهم :

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ٢٣

وهما رجلان يخافان النكوص عن أمر الله ، بينما بنو إسرائيل ـ كمجموع ـ لم يفهوا عن الله

حق الفهم ؛ لأنهم لو نفذوا أمر الله لهم بالدخول إلى الأرض المقدسة ولم ينكصوا لمكنهم الله من ذلك . لكن لم يفهم عن الله فيها إلا رجلان . وهما كالب ، ويوشع بن نون ، أحدهما من سبط يهوذا والآخر من سبط افرايم ، وهما ابنا يوسف عليه السلام ، فقد قالا : مادام الله قد كتب لكم الدخول ، فهو لا يطلب منا إلا قليلاً مـن الجهاد .

فحين يأمر الله الإنسان بعمل من الأعمال ، فيكفيه أن يتوجه إلى العمل اتجاهاً والمعونة من الله . وسبحانه يقول للعبد :

(أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى . فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلىّ بشبر تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلىّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة)[1] .

فإذا كان الشأن فى المشى أن يتعب الذاهب والسائر ، فالله لا يريد أن يرهق بالمشى من يقصده ويطلبه ؛ لذلك يُهرول فضله ورحمته ـ سبحانه ـ إلى العبد . فالرغبة الأولى أن يكون العمل لك أنت أيها العبد . ومن عظائم فضل الله أنه فعل ونسب إليك . وسبحانه يسعد بالعبد الساعى إليه . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ لنفترض أنك أردت أن تمسك سيفاً ، لماذا لا تحلل المسألة ؟ . السيف الذى تمسكه ، صنعته من الحديد ، والحديد استخرجته من الأرض .

والحق قال :

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

إن الحق هو الذى أنزل الحديد ، وهو الذى علمنا كيف نصقل الحديد ونشكله بالنار :

﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأنبياء)

---

(١) رواه البخارى ومسلم (متفق عليه) .

وأنا أريد من علماء وظائف الأعضاء أن يحددوا لنا ساعة أن يمسك الإنسان بشيء وليكن السيف . فبأى عضلة يمسك الإنسان السيف ؟. وكيف يأمرها الإنسان بذلك ؟. وكم عضلة وكم خلية عصبية تحركت من أجل أداء هذا الفعل ؟. على الرغم من أن الإنسان بمجرد إرادته أن يمسك شيئاً . فهو يمسك به . والإنسان إذا ما مشى خطوة واحدة ، فبأى العضلات بدأ المشى .

إن الإنسان عندما يحرك ذراعاً آلياً فى جهاز آلى ؛ يصمم عشرات الوصلات والأدوات والدورات الكهربية من أجل تحريك ذراع آلى ، فكم إذن من عضلات فى الإنسان تتحرك بالسير لخطوة واحدة ؟ إن الكثير جداً من أجهزة الإنسان تتحرك بالسير لخطوة واحدة . إن الكثير جداً من أجهزة الإنسان تتحرك لمجرد الإرادة منه !! . فإذا كانت إرادة الإنسان تفعل لمجرد أن يريد سواء أكانت هذه الإرادة هى الإمساك بالسيف أم حتى المشى لخطوة واحدة ، أم حتى الإمساك بالقلم بين الأصابع للكتابة . فليعلم الإنسان أن الإرادة عطاء من الله والإنسان لا يستطيع تحديد مواقع إرادته من جسده فما بالنا بالحق حين يريد أمراً ؟

ولنعد إلى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها الآن :

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

لقد أنعم الله على هذين الرجلين بحسن الفهم عن الله ، فقالا لبنى إسرائيل : ساعدوا أنفسكم بدخول هذه الأرض وسينصركم الله . ومثل الرجلين كمثل الأم التى طلب منها ابنها أن تدعو له بالنجاح ، فقالت الأم لابنها : سأدعو لك ولكن عليك فقط أن تساعد الدعاء بالإقبال على الاستذكار . وكأن الخوف من مخالفة أمر الله نعمة على هذين الرجلين ، وكأن الفهم عن الله لعباراته نعمة .

« ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون » كأنهم بمجرد الدخول سيغلبون هؤلاء العمالقة . فلم يطلب الله منهم قتال هؤلاء العمالقة . بل ساعة يراهم القوم الجبارون يدخلون عليهم فجأة فسوف يذهلهم الرعب .

وهم عندما نسجوا الأساطير حول هذه القصة قالوا : إن أحد هؤلاء العمالقة واسمه عوج بن عناق خرج إلى بستان خارج المدينة ليقطف بعض الثمار لرئيسه ؛ فخطف اثنين من هؤلاء الناس وخبأهما فى كمّه ، وألقاهما أمام رئيسه وهو يقدم الفاكهة إليه وقال الرجل العملاق لرئيسه : هذان من الجماعة التى تريد أن تدخل مدينتنا . هذه هى المبالغة التى صنعتها خوفهم من هؤلاء العمالقة ، برغم أن رجلين منها أحسنا الفهم عن اللّه بقولهما : « ادخلوا عليهم الباب » ؛ لأن هذا هو مراد الله ، وهو الذى يحقق لهم النصر .

وبعض المفسرين قالوا فى شرح هذه الآية : إن الرجلين اللذين قالا ذلك ليسا من بنى إسرائيل ؛ لأن هؤلاء المفسرين فهموا القول الحكيم : « قال رجلان من الذين يخافون » قالوا هما رجلان من الذين يخاف منهم بنو إسرائيل ، وقالا لبنى إسرائيل: لا يُخيفكم ولا يُرهبكم عظم أجسام هؤلاء فإن جنود الله ستنصركم :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

ويختتم الحق الآية بهذا التذييل : « وعلى اللّه فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » أى لا تتوقفوا عند حساب العدد فى مواجهة العدد ، والعُدة فى مواجهة العُدة ، ولكن احسبوا الأمر إيمانياً لأن اللّه معكم « إن تنصروا الله ينصركم » .

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وعلى المؤمن باللّه أن يضع هذا الإيمان فى كف قوته . فإن كان هؤلاء الناس من بنى إسرائيل المأمورين بدخول تلك الأرض مؤمنين بحق فليتوكلوا على اللّه .
فماذا قال هؤلاء القوم :

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ﴾

﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

كأن خلاصة قولهم لموسى عليه السلام : لا ترهق نفسك معنا ووفّر عليك جهدك فنحن لن ندخل هذه الأرض ، مادام هؤلاء العمالقة فيها . وإن كنت مصراً على دخولنا هذه الأرض فاذهب أنت وربك فقاتلا ونحن بانتظاركما هنا قاعدون . هكذا بلغ بهم الخوف أن سخروا من موسى وربّ موسى . وهكذا وصل بهم الاستهزاء إلى تلك الدرجة المُزرية . ولم يكن ذلك بالأمر الجديد عليهم فقد قالوا من قبل :

﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة النساء)

ومن قبل ذلك أيضاً عبدوا العجل . فماذا يقول موسى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وكان هارون أخاً لموسى عليه السلام ومُرسلاً مثله ؛ فكأن موسى عليه السلام قد أعلن عدم ثقته فى هؤلاء القوم الذين أرسله الله إليهم ؛ حتى ولا يوشع بن نون ولا كالب ، وهما الرجلان اللذان قالا لبنى إسرائيل : إنه يكفى دخول الباب لتهزموا هؤلاء الناس العمالقة . لكن أكانت نفس أخيه مملوكة له ؟ أم أنه قال ما فحواه : إنى لا أملك إلا نفسى وكذلك أخى لا يملك إلا نفسه ، أما بقية القوم فقد سمعت منهم يارب أنهم لن يدخلوا هذه الأرض مادام بها هؤلاء العمالقة . إذن فأنا وأخى فى طرف وبقية القوم فى طرف آخر ، لذلك افصل بيننا وبين هؤلاء القوم الفاسقين .

والحق سبحانه وتعالى فى هذا التعبير القرآنى يأتى بهذه الكلمات على لسان سيدنا

موسى والتى تحتمل أن يرقّ لها قلب واحد من أتباع موسى عليه السلام فيقول لموسى : إننى معك . ولذلك جاء قول موسى : « فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » . ومعنى الفاسقين ـ كما عرفنا ـ هم من خرجوا عن الإيمان ، كما تفسق الرطبة ؛ فالبلحة عندما ترطّب فإن قشرتها تتسع عن حجمها ؛ فتخرج الرطبة من قشرتها ؛ ويقال فسقت الرطبة ؛ فكأن الإيمان كالجلد والجلد كالقشرة . وهو كغلاف يحيط بالإنسان . وعندما يفسق الإنسان عن الإيمان فهو يخرج عن قانون الصيانة ، وكذلك كان فسق بنى إسرائيل ؛ لذلك قال الحق :

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾

فهل كان التحريم مدته أربعون عاما ؟ أو أنه قال : « إنها مُحرّمة عليهم » وانتهى الأمر لأنهم تأبّوا على أن يدخلوها ؟ . ولذلك فكل الذين قالوا : « لن ندخلها أبداً ماداموا فيها » لم يعش منهم أحد ليدخل هذه الأرض . وبعد ذلك صدر الحكم الآتى : « أربعين سنة يتيهون فى الأرض » فهل هذا القول هو استئناف للقول السابق فيكون ظرفاً لـ « مُحرّمة » . أو هو حكم منفصل ؟.

تصح هذه ، وتصح تلك . والتيه هو كما نقول : فلان تاه أى سار على غير هدى ولا يعرف لنفسه مدخلاً ولا مخرجاً ، والواحد عندما يدخل فى مجال متشعب المسالك ومتعرج الطرقات ، فهو لا يعرف كيفية الخروج منه ، هذا هو التيه . ولكن كم فرسخاً هى مساحة التيه ؟. حدّدها العلماء بستة فراسخ [والفرسخ قدر ثلاثة أميال] . كيف يتيهون فى تلك المساحة الضيقة من الأرض ؟

لقد أراد الله ذلك ؛ لأنهم ساعة يمشون ويرهقون فينامون ويأتى عليهم الصباح ليجدوا أنفسهم عند النقطة التى بدأوا منها ، وكانوا يضعون العلامات لإيضاح الطريق ، لكنهم كل صباح كانوا يجدون العلامات قد انتقلت من مكانها . وظلّوا

على هذا الوضع وفى هذا التيه إلى الأمد والوقت الذى حدده الله وهو أربعون سنة يتيهون فى الأرض . وحين يؤدبّ الله عاصياً يحفظ له من القوت والرزق ما يبقى به حياته ولو كان كافرا؛ لأنه سبحانه هو الذى استدعاهم إلى الوجود، ولهذا لم يضنّ عليهم فى التيه بما لم يضنّ به على الكافرين به سبحانه .

إذن حفظ الحياة أمر ضرورى . وعندما يرتكب إنسانٌ مَا ذنباً كبيراً فى حق المجتمع فإننا نضعه فى السجن ، ولكننا نطعمه ونسقيه ، وعندما يرتقى المجتمع الإنسانى ، فهو يوفّر للسّجين عملاً يتناسب مع مواهبه ويحبس عنه حُرية الحركة فى المجتمع ، والسجين المذنب يظل فى السجن ، ولكنه يأكل ويشرب وينام ويعمل ، فقط تختلف المسألة فى النقطة المهمة فى الحياة وهى أن يتحرك المتحرك وفق حريته ، فما بالنا بالحق الأعظم عندما سجنهم فى التيه ؟. لقد أطعمهم الله وسقاهم وأنزل عليهم المَنّ والسّلوى .

وقد يقول قائل : إن الله قد أنزل عليهم المَنّ والسّلوى ليعيشوا كُسالى وغَرقى فى التَكبر والغرور . ونقول : لا . فذلك الإجراء الإلهى من ضمن حكمه البالغة أن يطيل عليهم الوقت . فلو أنه سبحانه وتعالى قد جعلهم يزرعون ويحرثون لانشغلوا بأمور الحياة اليومية ، لكن الحق أراد أن يُطيل عليهم الإحساس بالزمن . فالمسألة ليست طعاماً وشراباً . ولكن هناك كرامة فوق الطعام وفوق الشراب .

إننا نرى ذلك عندما نسمع عن اعتقالات لبعض الأفراد الذين أساءوا للمجتمع . وتسمح لهم السلطات بالطعام الذى يأتيهم من منازلهم . ولكنّ هؤلاء المعتقلين يشعرون بالضيق من تقييد الحركة . إذن أراد الحق لهم عقاباً صارماً فى فترة التيه . ولذلك نجد بعضهم يحسب المسألة والزمن فى فترة التيه ، فيقول الواحد منهم ما ذكره الحق :

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى ﴾

(من الآية ١٤٢ من سورة الأعراف)

وبعد أن رحل موسى عن القوم عبدوا العجل الذى صنعه لهم موسى السامرىّ ، وعاد إليهم موسى وعاتب أخاه هارون العتاب القاسى ، وعاقبهم ربهم على كفرهم أربعين سنة. كأن كل يوم من عبادة العجل صار سنة من العقاب فى التيه . ولأنه رَبٌّ ورحيم لم يتركهم دون أن يحفظ لهم حياتهم بالقوت ، فكان القوت هو المَنّ والسَّلوى . هل كان موسى عليه السلام معهم فى التيه أم لا ؟ وهل مات معهم فى التيه أم لا .؟ تلك أسئلة لا تهمنا الإجابة عنها بالرغم من أن بعض العلماء قد شغلوا أنفسهم بها ؛ فتلك أمور لا تنفع ولا تضر . المهم أن بنى إسرائيل لم يدخلوا أريحا إلا على يد يوشع بن نون بعد الأربعين سنة :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولنا أن نقرأ هذا القول الحكيم كما يلى : « قال ربِّ إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها مُحَرَّمة عليهم » . وهذا الوقف يعطينا الفهم بأن الأرض المقدسة صارت مُحَرَّمة عليهم إلى الأبد . وبعد ذلك يأتى أمر الله بعقابهم فى التيه أربعين سنة : « أربعين سنةً يتيهون فى الأرض فلا تأسَ على القوم الفاسقين » . أما لو قرأنا هذا القول الحكيم كما يلى : « قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » فهذه القراءة تتيح لنا الفهم بأن مدة العقوبة لهؤلاء القوم الفاسقين أربعون سنة فى التيه . ودخلوا بعدها مدينة أريحا .

ويأمر الحق موسى ألاّ يحزن على هؤلاء القوم الفاسقين ، ذلك أن موسى عليه السلام عندما دعا الله بقوله : « فافرق بيننا » انتابه قدرٌ من الضّيق من هذا الدُّعاء وقال لنفسه : لماذا لم ادعُ لهم بالهداية بدلاً من أن أدعو بالفراق ؟ ، ولذلك قال له الحق : « فلا تأس على القوم الفاسقين » أى فلا تحزن عليهم لأنهم أَوْلَى بالعذاب لفسقهم ومخالفاتهم .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

وساعة يتلو الإنسان - أى يقرأ - فهو يتكلم بترتيب مارآه من صُور؛ ذلك أن الإنسان عندما يرى أمراً أو حادثة فهو يرى المجموع مرة واحدة ، أو يرى كل صورة مكّونة للحدث منفصلة عن غيرها . وعندما يتكلم الإنسان فهو يرتّب الكلمات ، كلمة من بعد كلمة ، وحرفاً من بعد حرف ؛ إذن فالمتابعة والتلاوة أمر خاص بالكلام . « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق » والنبأ هو الخبر المهم ، فنحن لا نطلق النبأ على مطلق الخبر . ولكن النبأ هو الخبر اللافت للنظر . مثال ذلك قوله الحق :

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النبأ)

إذن فكلمة « نبأ » هى الخبر المهم الشديد الذى له وقع وأثر عظيم .

« واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق » وساعة نسمع قوله الحق : « بالحق » فلنعلم أن ذلك أمر نزل من الحق فلا تغيير فيه ولا تبديل . ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة الإسراء)

أى أن ما أُنزل من عند الله لم يلتبس بغيره من الكلام ، وبالحق الجامع لكل أوامر الخير والنواهى عن الشّر نزل . وعندما يقول سبحانه : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق » فسبحانه يحكى قصة قرآنية تحكى واقعة كونية . ومادام الله هو الذى يقصّ فهو سيأتى بها على النموذج الكامل من الصدق والفائدة . ولذلك يسمّيه سبحانه « القصص الحق » :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة آل عمران)

ويُسمّيه سبحانه :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾

(من الآية ٣ سورة يوسف)

وسبحانه يقول : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قرّبا قرباناً فتقبّل من أحدهما ولم يتقبّل من الآخر » ونعرف أن آدم هو أول الخلق البشرى ، وأن ابنى آدم هما هابيل وقابيل ، كما قال المفسرون . وقد قرّب كل منهما قرباناً . والقُربان هو ما يتقرب به العبد إلى الله ، و« قربان » على وزن « فعلان » . فيقال : « كَفَر كُفرانا » و« غَفَر غُفرانا» . وهى صيغة مبالغة فى الحدث . وهل قدّم الاثنان قرباناً واحداً ؛ أم أن كلا منهما قدّم قرباناً خاصّاً به ؟ مادام الحق قد قبل من واحد منهما ولم يتقبّل من الآخر فمعنى ذلك أن كلاّ منهما قدّم قرباناً منفصلاً عن الآخر ؛ لأن الله قبل قربان واحد منهما ولم يتقبل قربان الآخر .

و« القربان » مصدر . والمصادر فى التثنية وفى الجمع وفى التذكير والتأنيث لا يتغير نطقها أو كتابتها . فنحن نصف الرجل بقولنا : « رجل عدل » وكذلك « امرأة عدل » و« رجلان عدل » و« امرأتان عدل » و« رجال عدل » و« نساء عدل » . إذن فالمصدر يستوى فيه المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث . ونعلم أن آدم هو أول الخلق الآدمى ، وجاءت له حواء ؛ وذلك من أجل اكتمال زوجية التكاثر ؛ لأن التكاثر لا يأتى إلا من ذكر وأنثى :

﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

فكل موجود أراد له الحق التكاثر فهو يخلق منه زوجين .

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

ونرى ذلك حين نقوم بتلقيح النخلة من طلع ذكر النخل . وهناك بعض الكائنات لا نعرف لها ذكراً وأنثى ؛ إما لأن الذكر غير موجود تحت أعيننا ، ولكن يوجد على بعد والريح هي التي تحمل حبوب التلقيح :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الحجر)

فتأتي الريح بحبوب التلقيح من أي مكان لتخصب النبات ، وإما أن الذكورة والأنوثة يوجدان معاً في شيء واحد أو حيز واحد ، مثال ذلك عُود الذّرة ؛ حيث نجد ذكورته وأنوثته في شيء واحد ؛ فقمّة العود فيها الذكورة ويخرج من كل « كوز » ذرة قدراً من الخيوط الرفيعة التي نسمّيها « الشّوشة » . وهذه هي حبال الأنوثة . وينقل الهواء طلع الذكورة من سنبلة الذرة إلى « الشوشة » ، وكل شعرة تأخذ من حبوب اللقاح كفايتها لتنضج الحبوب ، وعندما تلتصق أوراق كوز الذرة ولا تسمح بخروج الخيوط الرفيعة لحبال الأنوثة ، ولا تصلها حبوب اللقاح ، فيخرج كوز الذرة بلا نضج وبلا حبوب ذرة . وعندما نمسك بكوز الذرة ونفتحه قد نجد بعضا من حبوبه ميتة وهي تلك التي لم تصلها حبوب اللقاح ؛ لأنها لم تملك خيطا من الحبال الرفيعة لتلتقط به حبوب اللقاح . وحبّة الذّرة التي لم يخرج لها خيط رفيع لالتقاط حبوب اللقاح لا تنضج . إذن فكل شيء فيه الذكورة والأنوثة .

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

وكذلك قوله : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) .

وكل ما يقال له شيء لا بد له من ذكر وأنثى ، حتى المطر لا بد أن يلقح فلو لم يتم تلقيح المطر بالذرات لما نزل المطر ، وحتى الحصى فيه ذرات موجبة وذرات سالبة . وعندما اخترعنا الكهرباء واكتشفنا الموجب والسالب ارتحنا . إذن فعندما يقول الحق :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وقوله سبحانه :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يس)

وهذا أول علم للعرب ، فلم يكونوا من قبل القرآن أمّة علم .

وقد أوصل القرآن كل العلم للعرب حتى فاقوا غيرهم ، عندما أخذوا بأسباب الله ، لكن عندما تراخوا وواصل غيرهم الأخذ بالأسباب تقدمت الاكتشافات ، وهذه الاكتشافات نجدها مطمورة فى القرآن :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يس)

إذن فكل ما يجدُّ ويحدث ويكتشف من شيء فيه موجب وسالب أى ذكورة وأنوثة ؛ يدخل فى نطاق :

﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

والإنسان سيد الوجود لا بد له من زوجين ذكر وأنثى وذلك للتكاثر لا للإيجاد ، أما الإيجاد فهو لله سبحانه وتعالى الذى أوجد كل شيء من لا شيء . وعندما جاء آدم وحواء وبدأ اللقاح والتكاثر أخذ عدد سكان الأرض فى النمو . ولو أننا رجعنا بالأنسال فى العالم كله رجعة متأخرة نجد العدد يقل إلى أن يصل إلى آدم وحواء . مثال ذلك لو عدنا إلى الوراء مائة عام لوجدنا تعداد مصر لا يتجاوز خمسة ملايين نسمة على الأكثر ، ولو عدنا إلى الوراء قروناً أكثر فإن التعداد يقل ، إلى أن نصل إلى الخلق الأول الذى خلقه الله وهو آدم وخلق له حواء . فالإنسان بمفرده لا يأتى بنسل .

إذن عندما نجرى عملية الإحصاء الإنسانى فى العالم ونرجع بها إلى الوراء ، نعود

إلى الخلق الأول . وكذلك كل شيء متكاثر سواء أكان حيواناً أم نباتاً . وعندما نسير بالإحصاء إلى الأمام فإننا سنجد الأعداد تتزايد ، وتكون القفزة كبيرة . وعندما يبلغنا الحق أنه خلقنا من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساء ، فإن عِلم الإحصاء إنما يؤكد ذلك . والتكاثر إنما يأتى بالتزاوج . والتزاوج جاء من آدم وحواء . وأراد الحق أن يرزق آدم بتوائم ليتزوج كل توأم بالتوأم المخالف له فى النوع من الحمل المختلف . أى يتزوج الذكر من الأنثى التى لم تولد معه فى بطن واحدة .

وجاء ربّنا لنا بهذه القصة كى يبين لنا أصل التكاثر بياناً رمزياً . أوضح سبحانه : أن التباعد الزوجي كان موجوداً ، ولكنه التباعد الإضافى ، صحيح سيكون هذا الولد أخا للبنت هذه ، وهذه البنت أخته ؛ لكن حين تكون مولودة مع هذا ، وتأتى بطن ثانٍ فيها ذكر وأنثى ، فسيكون فيها بُعد إضافى ، فتتزوج البنت لهذا البطن بالذكر فى البطن الثانى . والذكر للبطن الثانى للبنت فى البطن الآخر ، وهذا هو البُعد الإضافى الذى كان مُتاحاً فى ذلك الوقت ؛ لأن العالم كان لا يزال فى بداية طفولته الواهية .

ونلحظ مثل هذا الأمر فى الريف ، حين يقول فلاح لآخر : « الذرة بتاعك خايب » ، يقول الفلاح الثانى : إنى آخذ من الأرض التى أخذت منها الذرة وأعطيها تقاوى منها ، فأنا قد زرعت فداناً من ذرة ، وأحجز كيلتين أو ثلاثا أستخدمها تقاوى لأزرعها ، فتخرجَ الذرة ضعيفة ، فيقول الفلاح الناضج : يا شيخ هات من ذرة جارك . فيكوّن ذرة جارى فيه شيء من البُعد . وبعد ذلك تصير النوعية واحدة ، فيقول الفلاح الناضج : هات من بلد أخرى . وبعد ذلك من بلد ثالثة ، ولذلك فالتهجين والتكاثر كيف نشأ ؟ من أين نأتى بالتقاوى ؟ كلما جئنا بها من الخارج يكون الناتج قوياً .

كذلك التزاوج ليكون فى هذه الزوجية مواهب ، ولذلك فطن العربى قديماً لها ، ومن العجيب أن هذا العربى البدوى الذى لم يشتغل بثقافة ولم نعرف له تعليما ولا علماً، يهتدى إلى مثل هذه الحقيقة اهتداءً يجعلها قضية عامة فطرية . ويريد أن يمدح رجلاً بالفتوة ، فيقول عنه :

فتى لم تلده بنتُ عمٍ فيضوى وقد يضوى سليل الأقـارب

كيف اهتدى هذا الشاعر لهذه؟! وبعد ذلك يقول:

تجاوزت بنت العم وهي حبيبة إليّ
مخافة أن يضوى على سليلها

أى هو يحبها، لكنه تجاوزها، حتى لا يضوى سليلها.

ولذلك يقول الشاعر في هذه القضية:

أنصح من كان بعيد الهم
تزويج أولاد بنات العم
فليس ينجو من ضوى وسقم

الشاعر العربي الذى ليس في أمة مثقفة ولا تعرف التهجين ولا تعرف هذه الأشياء، انتبه إلى هذه المسألة، كيف؟ إما أن يكون قد اهتدى إليها في واقع الكون فوجد أن زواج القريبات يُنشيء نسلاً ضعيفاً، وإما أن يكون ذلك من رواسب الديانات السابقة القديمة والعظات الأولى التي ظل الإنسان محتفظاً بها، فإذا أراد الله أن يبدأ تكاثر فلا بد أن يتزوج أخ بأخته، ولكن سبحانه يريد أن نتباعد، نعم أخ وأخت لكن نتباعد فنأخذ البطن المختلف، ولذلك حينما جاءوا لينسبوا قصة ابنى آدم. قابيل وهابيل، صحيح اختلفوا. مثلا: «سِفْر التكوين» تكلم، ونحن نأخذ من «سفر التكوين» لأن التغيير فيه لا يهمهم. فقد كان التغيير في المسائل التي تهمهم، كمسألة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، إنما المسائل الأخرى لا تهم، ومع ذلك ففيها أيضا الكثير.

إنهم يقولون: إن هابيل هو أول قتيل في الإنسانية وقتله «قابيل» وبعض القصص تقول: لم يكن يعرف كيف يُميته أو يقتله، فالشيطان مَثَّل له بأنه جاء بطير ووضع رأسه على حجر ثم أخذ حجرا آخر فضرب به رأسه حتى قتله، فعلّمه كيف يقتل، مثلما سيأتى الغراب ويعلّمه كيف يدفن، أما مسألة كيف يقتل هذه لم تأت عندنا، إنما كيف يدفن فقد جاءت عندنا.

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

فهذا هو أول من توفى وقتل ، لكن كيف تقولون : إنه لم يكن يعرف القتل حتى جاءه الشيطان وعلّمه كيف يقتل أخاه ؟ نقول : أنتم لم تنتبهوا . فالحق قال :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ ﴾

فقابيل - إذن - فاهم للقتل ، فلا تقل إنه تعلم القتل ، صحيح مسألة الدفن هذه جديدة ، والقصة جاءت لتثبت لنا كيف بدأ التكاثر ، ليجمع الله فيه بين الزوجين البُعد الإضاق ؛ لأن البُعد غير الإضاق غير ممكن فى هذا الوقت فتكون هذه بالنسبة لهذا أجنبية ، وهذا بالنسبة لهذه أجنبى إلى أن يتوسع الأمر ، وبعد ذلك يُعاد التشريع بأن الأخت من أى بطن محرّمة على أخيها تحريماً أبديًا ، وبعد ذلك نتوسع فى الأمر وننقله إلى المحرمات الأخريات من النسب والرضاع فلا بد أن لهذه القصة أصلا . هم قالوا نقرب قرباناً .. لماذا ؟ « إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » .

لماذا يريدان أن يُقرِّبا قُرباناً ؟ قالوا:ان أخت قابيل التى كانت فى بطن معه كانت حلوة وجميلة ، وأخت هابيل لم تكن جميلة ، فطبقا لقواعد التباعُد فى الزوجية كان على هابيل أن يأخذ أخت قابيل ، وقابيل يأخذ أخت هابيل ، فَحسد قابيل أخاه وقال : كيف يأخذ الحلوة ، أنا أولى بأختى هذه . وكان سيدنا آدم مازال قريب العهد بالوحي ، فقال : قربوا قرباناً وانظروا . لأنه يعلم جيداً أن القربان سيكون فى صف التباعد . « إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . وبعض المفسرين يقول : والله نحن لم نعرف طريقة التقبّل هذه . نقول له : فلنبحث عن « قُربان » فى القرآن . ننظر ما هو القُربان ؟ قد وردت هذه الكلمة فى القرآن فى أكثر من موضع . قال :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ ﴾

(من الآية ١٨٣ سورة آل عمران)

والحق يقول لهم ردًّا عليهم :